

منظر النخبة السياسية الحاكمة في سلطنة دلهي (1285 - بعد سنة 1357م)

"ضياء الدين برني وفتاوى جهانداري"

The theorist of the ruling political elite in the Delhi Sultanate
(1285 - after 1357 AD)

Ziya' al-Din Barani and his Fatawā-i Jahāndārī

بشير توهامي

Touhami Bachir

جامعة أحمد دراية أدرار (الجزائر)، Tou.Bachir@univ-adrar.edu.dz

تاريخ النشر: 2022/01/25

تاريخ القبول: 2021/10/31

تاريخ الاستلام: 2021/10/03

الملخص: لم ينقطع العلماء والكتّاب والمصلحون عن ممارسة واجب النصيح والإصلاح والتّقييم والتّقويم، تجاه الخلفاء والسلّاطين والأمراء والوزراء وكلّ ذي مسؤولية عبر كامل عصور التاريخ الإسلامي، فازدهر بهم ما عُرف إسلاميا بـ "أدب نصائح الملوك" والذي يقابله أوروبيا "مرايا الأمراء"، ومن بين أولئك العلماء المنظرين ضياء الدين برني صاحب كتاب "فتاوى جهانداري"، وصاحب أخطر نظرية في الفقه السياسي في تلك الحقبة، هذه الورقة البحثية تعرّف بضياء الدين برني وكتابه، وربما تعتبر أول محاولة عربية لتسليط الضوء على هذا العالم الهندي المسلم وفكره السياسي.

الكلمات المفتاحية: ضياء الدين برني، فتاوى جهانداري، سلطنة دلهي، نصائح الملوك، النظرية السياسية.

Abstract :

Scholars, writers, and reformers did not cease to advice, reform, evaluation, and correction towards the caliphs, sultans, princes, ministers, and everyone with responsibility throughout the entire eras of Islamic history, and thanks to them flourished what is known in the Islamic civilization as "the literature of the advices of kings" _ "mirrors of princes" _ Among those Scientists and theorists is Ziya' al-Din Barani, the author of the book "Fatawā-i Jahāndārī" and the author of the most dangerous theory in political jurisprudence in that era. This research paper introduces Ziya' al-Din Barani and his book, perhaps this study is considered the first Arab attempt to shed light on this Indian-Muslim scholar and his political thought.

Keywords: Ziya' al-Din Barani, Fatawā-i Jahāndārī, Sultanate of Delhi, advice to kings, political theory.

المؤلف المرسل: : توهامي بشير ، الإيميل: Tou.Bachir@univ-adrar.edu.dz

1. مقدمة:

وصل الإسلام إلى الهند في النصف الأول من القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي عن طريق الفاتح المسلم محمد بن القاسم الثقفي، مع أنّ العلاقات بين العرب - وهم مادة الإسلام - والهند بدأت قبل ظهور الإسلام بكثير. كما انتشر الإسلام في أجزاء من الهند عن طريق التجار المسلمين قبل أن تتوجه إليها الجيوش الإسلامية (النمر، 1981). ثم وطّد الفاتح العظيم يمين الدولة أبو القاسم محمود بن سبكتكين الغزنوي حكم الإسلام في الهند بفنوحاته الكثيرة، وتابعه في توطيد الإسلام في شبه القارة الهندية سلاطين الدولة الغورية، إلى أن تمكّن قطب الدين أيبك أحد مماليك الغوريين من تأسيس أوّل سلطنة إسلامية مستقلة عاصمتها دلهي شمال الهند، ضمت تحت سلطانتها أجزاء شاسعة من شبه القارة الهندية وتجذّر الإسلام بها مدة 320 عامًا (1206-1526). تعاقبت خلال تلك المدة على حكم سلطنة دلهي - ضمت تحت أراضيها أجزاء من الهند وباكستان وبنغلاديش وأجزاء من جنوب النيبال - خمسُ أسر حاكمة على التوالي: سلالة المماليك (1206-1290)، سلالة الخليجيون (1290-1320)، سلالة تغلق (1320-1414)، سلالة السادات (1414-1451)، وسلالة اللوديين (1451-1526).

في ذروتها في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي كانت سلطنة دلهي تحكم شبه القارة الهندية بأكملها تقريباً، وكانت الأسر الحاكمة المتعاقبة على حكمها - وأغلبهم تعود أصولهم إلى مماليك أتراك وأفغان - قد تغلّبت عليهم الثقافة الإسلامية الفارسية ورغم ذلك كان تعاطيهم السياسي يظهر بوضوح التجاذب بين التقليد العربي الذي يدور حول الشريعة الإسلامية والميراث الفارسي الساساني؛ فقد كان سلاطين دلهي رغم استقلاليتهم الكاملة حريصون على طلب تنصيبهم الرسمي على عروشهم من طرف الخليفة العباسي القابع كرمز ديني في البلاط المملوكي بالقاهرة (Bowering, Et Al, 2013).

كانت النتيجة الأولى للغزوات المغولية على خوارزم وخراسان خلال 1219 إلى 1221م هي انتشار اللغة والثقافة الفارسية في شمال شبه القارة الهندية؛ حيث توافد على العاصمة دلهي نخبة من أهل العلم والحرف وغيرهم واستقرّوا بها، فازدهرت بهم الثقافة الإسلامية الفارسية. إلى جانب أنّه ومنذ القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي وما بعده قديم إليها السلاطين الأتراك الذين غزوا الهند؛ وعلى الرغم من أن بعض السلاطين الأتراك والعائلات الحاكمة استخدموا اللغة التركية كلغة منطوقة، إلا أنّهم كانوا مشبّعين بالثقافة الفارسية. يمكن إرجاع جذور الثقافة الهندية الفارسية إلى السلالة الغزنوية التي كان مقرها في غزنة بأفغانستان اليوم؛ تم تقديم الفارسية إلى الهند من قبل السلطان محمود الغزنوي الذي غزا عدة مرات شمال غرب شبه القارة الهندية وفتح البنجاب عام 1020م، وخلال القرن الحادي عشر تدفقت الثقافة الأدبية الفارسية الجديدة من غزنة إلى لاهور وشمال الهند

ففضجت بذلك الثقافة الهندية الفارسية، وحصلت دلهي ولاحور على موقع وأهمية مماثلة لبخارى ونيسابور وأصفهان وشيراز وهرارة (Syros, 2012)

في تلك البيئة السياسية والثقافية ولد ونشأ أحد أهم مؤرخي ومنظري الفكر السياسي في سلطنة دلهي؛ ضياء الدين برني. مع العلم أنّ كتابه "فتاوى جهانداري" الذي تمّ اكتشافه فقط في أربعينيات القرن الماضي كما سنرى، لم يترجم بعد إلى اللغة العربية، ولم يسلط الضوء عربياً على ضياء الدين برني وكتابه ذاك. من أجل ذلك سنتركز إشكالية هذه الورقة البحثية حول شخصية ضياء الدين برني وموقعه ضمن كُتّاب أدب نصائح الملوك، وما الجديد الذي حملته كتابه "فتاوى جهانداري" مقارنة مع غيره من كتابات الفكر السياسي الإسلامي؟ ومدى تأثيراتها على النخبة السياسية والسلطة الحاكمة بسلطنة دلهي؟

كما تهدف هذه الورقة البحثية إلى تعريف الباحث العربي عن قصة العثور على المخطوطة النادرة الموسومة بـ "فتاوى جهانداري"، والتعريف بصاحب الفتاوى والظروف التي آل إليها أمره والتي دعت له لوضع نظرياته السياسية ضمن كتاب الفتاوى، إلى جانب تعريف القارئ العربي على مضمون الفتاوى بشكل موجز، والجديد الذي قدّمته في باب علم السياسة وتسيير الشأن العام. من هنا تتّضح أهمية هذه الورقة البحثية التي تعيد إن جاز التعبير إحياء علم إسلامي من أعلام الفكر والسياسة في شبه القارة الهندية، وتقديمه للقارئ والباحث العربي ليعلم مدى رحابة الحرية الفكرية التي تناول بها أسلاف هذه الأمة قضايا الفكر والسياسة، ولعلّ جهيذاً من جهايز الفكر والترجمة يضطلع بتحقيق "فتاوى جهانداري" وترجمته إلى اللغة العربية فيثري بها المكتبة العربية، ويناله كما أرجو أن ينالني ثواب إحياء تراث هذه الأمة العظيمة.

قد اكتشفت ضياء الدين برني وكتابه الفتاوى حين كنت أراجع بعض الأبحاث التي قد تفيدني للمشاركة في الملتقى الدولي العلمي الهندي العربي الأول (عن بعد) الذي نظّمه مركز ضياء للمؤتمرات والأبحاث بالمغرب وقسم اللغة العربية بالجامعة الملكية الإسلامية بنيودلهي، وغيرهما من الهيئات العلمية بتاريخ 24-25 أكتوبر 2020 فبحثت عن اسمه وكتابه ذاك في الكثير من المكتبات والمواقع عبر الأنترنت، فلم أجد فيما نشر عنه باللغة العربية سوى دراسة واحدة نشرت بالمجلد الثاني لمجلة الأخلاق الإسلامية (Journal of Islamic Ethics) التي يصدرها مركز أبحاث الشريعة الإسلامية والأخلاق بكلية الدراسات الإسلامية بجامعة حمد بن خليفة بدولة قطر سنة 2018 لصاحبها الدكتور صاحب عالم الأعظمي الندوي الزميل الباحث في مركز حسن بن محمد آل ثاني للدراسات التاريخية بالدوحة، وعنوان بحثه: " دور العلماء والمؤرخين في نقل النظريات السياسية الساسانية إلى الهند في

عصر سلطنة دلهي، كتاب (فتاوى جهانداري) نموذجاً"، وقرأت هذا البحث فإذا هو يركز على النظريات السياسية الساسانية التي انتشرت في التراث الفكري الإسلامي عامة، والهندي بشكل خاص بالتركيز على مواقع هذه النظريات في كتاب فتاوى جهانداري.

بالنسبة للمنهج العلمي الذي سأعتمده في تقديم ضياء الدين برني وفتاويه يعتمد أساساً على ما هو متعارف عليه في المجال العلمي في دراسة وتقديم كتاب، ومن المهم جداً أن أنكر أنني اعتمدت في ترجمة الفتاوى على كتاب: النظرية السياسية لسلطنة دلهي (متضمنة لترجمة فتاوى جهانداري لضياء الدين برني) (The Political Theory of the Delhi Sultanate (including a translation of Ziauddin Barani's Fatawa-I Jahandari)) وهو كتاب نشرته دار كتاب محل بالهند سنة 1961م ووضع مقدمته وعلق عليه المؤرخ الهندي الكبير محمد حبيب وتضمن ترجمة إنجليزية لفتاوى جهانداري للدكتورة الباكستانية أفصار عمر سالم خان (Afsar Umar Salim Khan)، وكانت أفصار أول من ترجمت أجزاء كبيرة من فتاوى جهانداري إلى الإنجليزية في إطار إعدادها لرسالة الدكتوراه تحت إشراف البروفسور بيتر هاردي (Peter Hardy) في مدرسة لندن للدراسات الشرقية والأفريقية (SOAS).

سأتناول الموضوع في ثلاثة مباحث: المبحث الأول: التعريف بضياء برني ومكانته العلمية في سلطنة دلهي والمبحث الثاني: التعريف بكتاب فتاوى جهانداري وكيف تم العثور على مخطوطته، وأول من ترجمها وعرف العالم بها وأهم من تناولوها بالبحث. والمبحث الأخير عرض موجز لأهم ما تقرّد به ضياء الدين برني في كتابه فتاوى جهانداري مع عرض موجز لمضمون الكتاب. ثم أختم بأهم النتائج والتوصيات.

2. ترجمة ضياء الدين برني

ضياء الدين بن مؤيد الملك بن بارسك برلاس البرني (1285- بعد سنة 1357م): كان من مشاهير الفضلاء وأعرفهم بالتاريخ وسياسة المدن، صنّف كأعظم المؤرخين المعاصرين في أوائل العصور الوسطى في الهند. ولد سنة 1285م أي بعد ستة عقود من الغزو المغولي لخوارزم وخراسان من 1219 إلى 1221م، وثلاثين عاماً بعد حصار بغداد سنة 1258م وانهيار الخلافة العباسية. كانت ولادته على الأرجح في مدينة برن (Baran) اسمها حالياً بولاندشهر "Bulandshahr" جنوب شرق دلهي. نشأ ضياء الدين بالعاصمة دلهي في بيئة غنية وتقاليد أرستقراطية للغاية في ذلك الوقت؛ حيث مر قرن على إنشاء سلطنة دلهي من قبل سلاطين أتراك فارسيين يعتقدون الديانة الإسلامية السنية. تزامنت ولادته مع السنوات الأخيرة من حكم السلطان غياث الدين بلبن (1266-1287م)، حسب الباحثين تعود خلفية برني لعائلة أرستقراطية من المهاجرين الأتراك الأوائل إلى الهند؛ كان جده

لأمه أحد النبلاء المتميزين لبلبان، وكان والده مؤيد الملك (Muwaidul Mulk) في الطاقم الشخصي للأمير أركالي خان (Arkali Khan)، الابن الثاني لجلال الدين خليجي (Jalaluddin Khalji) (حكم 1290-1296)، وكان عم برني علاء الملك (Alaul Mulk) صديق علاء الدين خليجي (Alauddin Khalji) (حكم من 1296 إلى 1316)، وكان قائدا لشرطة (kutwal) دلهي، وكان اليد اليمنى لعلاء الدين الخليجي في التخطيط لحملة ديوجيري (Deogiri) والتآمر لاغتيال جلال الدين. بعد استيلاء علاء الدين على العرش تمت مكافأة علاء الملك على الفور بمنصب حاكم كارا (Kara) والعود (Oudh)؛ بعد ذلك بوقت قصير تمت دعوته إلى دلهي ليكون المستشار الرئيسي للسلطان وحاكم أوكوتوال (kotwal) العاصمة. كان جده (والد أمه) حسام الدين حاجبا للسلطان غياث الدين بلبان (حكم 1266-1287) وعينه بلبان لاحقا حاكما لمدينة لخناوتي (Lakhnawti) يكتب برني عن نفسه: "كان والد هذا الضعيف نبيلاً وجدتي سيد (من نسل النبي)"، لكن ضياء الدين برني لا يتحدث عن جده (والد الأب) واسمه وعمله. لذلك من الواضح أن والده لم يكن سيذاً. علاوة على ذلك يبدو مؤيد الملك لقباً ملكياً وليس اسماً حقيقياً. على الرغم من أن معظم الأعمال التاريخية المعاصرة قدمته على أنه عضو في الطبقة الأرستقراطية التركية إلا أن برني نفسه كتب أنه هندي - ربما مقصوده أنه ولد ونشأ بالهند فهي موطنه - وكان برني مرتبطاً بالنسب والزواج من "عائلات مسلمة متوسطة الرتبة الوظيفية" (Mehta, 190 / Zarhani, 2017). عندما توفي السلطان غياث الدين بلبان سنة 1287م وكان قد فقد ابنه محمد في القتال ضد المغول لم يستطع خلفاؤه دعم السلالة، فأصبح الأتراك الخليجيون (Khilji Turks) السلاطين الجدد لدلهي. ومع ذلك احتفظت النخبة التركية الناطقة بالفارسية بمناصبها البيروقراطية والإدارية. وكما سبق أن ذكرنا كان ضياء الدين برني ينتمي هو وعائلته إلى تلك النخبة التركية الفارسية، وقد أتاح له ذلك الوضع الاجتماعي فرصة للتعليم الجيد. تلقى تدريباً مكثفاً باللغة العربية والفارسية بالإضافة إلى ذلك فقد تدرب جيداً في علم اللاهوت الإسلامي وقرأ بعمق في التاريخ. بعد أن تعلم القرآن والأبجدية واصل دراسته في عهد الملك الجديد الخليجي علاء الدين. يصف برني في تاريخه الحياة الفكرية لدلهي في عهد علاء الدين مع أساتذته وعلمائه الرائعين الذين "لم يكن من الممكن العثور على مثلهم في بخارى أو سمرقند أو دمشق أو تبريز أو أصفهان أو في أي جزء من العالم ... كانوا يساؤون الغزالي والرازي ... كما ذكر برني أنه كان تلميذا لبعض هؤلاء المعلمين قرأ ودرس "عدة كتب من العصور القديمة واللاحقة في كل فرع من فروع المعرفة"، وأكد أنه "بعد التفسير والحديث النبوي والفقه، والتصوف لم أجد أي علم

مفيد مثل علم التاريخ". ومع ذلك لم يتلق برني أي تدريب في الفلسفة وهذا الجهل بالفلسفة ينعكس في أعماله عندما ينتقد انخراط المسلمين فيه (Zarhani, 2017).

أثناء تعليمه تأثر أيضًا بشدة بالتصوف الإسلامي والتقاليد الصوفية. أصبح فيما بعد مُريداً وصديقاً للشيخ الصوفي الشهير "نظام الدين أولياء" (حوالي 1243-1325). كان لبرني علاقة وثيقة مع الشعارين الهنديين الناطقين بالفارسية: الكاتب الشهير وشاعر سلطنة دلهي أمير خسرو دهلوي (Amir Khosrow) (1253-1325) (Dehlavi) وأمير حسن دهلوي (Amir Hasan Dehlavi) (1275-1336). في سنة 1334 أو 1335م عندما بلغ الخمسين من عمره مكّنته خلفيته المتميزة اجتماعيا وتعليميا من الحصول على عمل في بلاط سلطان دلهي الجديد محمد بن تغلق (Mohammad ibn Tughlaq) (حكم من 1324 إلى 1351)، ليصبح فيما بعد مستشارا ونديما للسلطان محمد، وهو منصب مهم، وباعتباره أحد رجال البلاط الملكي كان لديه حق الوصول إلى السلطة والثروة والمعلومات واستمر في منصبه ذاك مدة سبعة عشر عاماً (Zarhani, 2017).

كان ضياء الدين برني بعد العز والمجد ضحية انقلاب مفاجئ للسلطة؛ توفي السلطان محمد بن تغلق بلا أولاد بمدينة ثاتا (Thatta) - عاصمة السند في العصور الوسطى - حيث ذهب لقمع ثورة هناك، وعندما بلغت أنباء وفاته إلى العاصمة دلهي قام الوزير خواجه جهان (Khwaja Jahan) الذي كان يدير شؤون السلطنة في غياب السلطان بتنصيب صبي صغير على العرش، غير مدرك أن فيروز تغلق (ابن عم محمد بن تغلق) - (حكم من 1351 إلى 1388) - قد أعلن بالفعل سلطاناً من قبل حاشية السلطان وضباط الجيش في السند. فَقَدَ الخواجة ورفاقه حياتهم بسبب هذه الحادثة. وألقي بضياء الدين برني في سجن قلعة بهاتنر (Bhatner) بإقليم البنجاب لمدة خمسة أشهر للاشتباه في دعمه للوزير خواجه جهان. أولئك الذين شعروا بالغيرة من برني أرادوا إعدامه لكنه نجى من الإعدام بالتدخل الشخصي للسلطان فيروز تغلق، ومع ذلك فقد برني الرعاية الملكية وعانى من مصادرة أصوله وممتلكاته؛ أصبح فقيراً بين عشية وضحاها. تبرا منه أصدقاؤه وأهمله أقاربائه واحتقره أعداؤه، مات حزينا في تكيّة الشيخ نظام الدين أولياء حوالي 1357م. (Mehta, 1900) هناك اختلاف بين المؤرخين في تاريخ الوفاة؛ ففي حين يذكر البروفسور بروجردى، مهرزاد (Mehrzad Boroujerdi) أن برني توفي سنة 1360م (Mehrzad, 2013)، يذكر الفيلسوف الهندي جارفا لال مهتا (Jarava Lal Mehta) وغيره من المؤرخين أن برني توفي سنة 1357م (Bowering and others, 2013)، في حين يفضل الدكتور أنطوني بلاك وغيره عدم تحديد تاريخ دقيق بإثبات أنه توفي بعد 1357م. (Black, 2011)

ألف ضياء الدين برني ثمانية أعمال على الأقل: أربعة من الأعمال موجودة: أشهرها والذي يعرف بها برني هو تاريخه المسمى: تاريخ فيروز شاهي تغلق (फ़िरोज़ शाह तुग़लक़) الذي يتناول حياة وعهود سلاطين دلهي من غياث الدين بلبان (Ghiyas ud din Balban) (1266-1287 م) إلى فيروز شاهي (1354 - 1370م) إضافة إلى فتاوى جهانداري وهو عمل كلاسيكي من نوع أدب نصائح الملوك الفارسي. وأخبار البرامكة (Akhbar-i Barmakiyān)، وصحيفة نعت محمد (Saḥīfat-i Na't-i Muḥammadī). فقدت أربعة من أعماله المعروفة: حسرت نامه (Ḥasrat-nāma)، وصلاة كبير (Ṣalāt-i kabīr)، وعنايت نامه إلهي (Ināyat-nāma-yi ilāhī) ومآثر السادات (Ma'āsir-i sādāt). قام برني بتأليف أعماله الأدبية في وقت متأخر من حياته. إن تقاطع حياة برني كمؤلف ورجل حاشية يسلط الضوء على المجموعة المعقدة من الأيديولوجيات والحقائق السياسية في عصره كتب برني أعماله الرئيسية: تاريخ فيروز شاهي، وفتاوى جهانداري بعد إقالته من منصبه؛ سمى تاريخه باسم السلطان الجديد فيروز شاه على أمل استعادة حياته الملكية. لكن محاولاته فشلت ولم يكرس فتاوى جهانداري لأي زعيم آخر لم يستعد أبدًا مكانته في بلاط فيروز شاه، ولم يبلغ ما كان يؤمله، وتعكس العديد من أعماله جهوده لاستعادة سمعته ومكانته (Seyed, 2017, 248). يصفه الفيلسوف الهندي ج. ميهتا (Jarava Lal Mehta) بأنه "أعظم المؤرخين المعاصرين للهند في العصور الوسطى المبكرة.. (Mehta, 1900, P20) "

3. التعريف بكتاب فتاوى جهانداري وأهم من تناوله بالبحث

بداية نعرّف بعنوان الكتاب "فتاوى جهانداري": فتاوى جمع فتوى والفتوى في الاصطلاح هي الإخبار بحكم الله باجتهاد عن دليل شرعي، لمن سأل عنه، لا على وجه الإلزام" (الريملي، 2016، ص32)، ومع أنّ الكتاب يناقش وي طرح أفكار ونظريات سياسية، إلا أنّ الخلفية الفقهية الشرعية لضياء الدين برني جعلت الكتاب يبدو كما لو أنّه ردود شرعية لأسئلة وإشكالات تهمّ أولى الأمر، وبالتالي يكتسي الكتاب أهمية سياسية وشرعية، أما كلمة جهانداري (Jahandari) فهي كلمة فارسية بمعنى الدنيوي ويقابلها دينداري (Dindari) بمعنى الديني، يرتبط دينداري بالعالم الروحي والإلهي، ويتعامل جهانداري مع الشؤون الدنيوية والقوة الزمنية (Seyed, 2017, 257) فيكون معنى العنوان فتاوى دنيوية ولعلّها بلغة عصرنا فتاوى مدنية ويقابلها فتاوى دينية .

قبل أربعينيات القرن التاسع عشر كان ضياء الدين برني معروفًا فقط بتاريخ فيروز شاهي، ثمّ تغير ذلك عندما تمّ لفت الانتباه في أربعينيات القرن الماضي إلى وجود عمل لضياء الدين برني في مجموعات المكتب الشرقي والهند (The Oriental and India Office Collections) بلندن من قبل أبو محمد حبيب الله (Abu

(Mohammed Habibullah واشتياق حسين قريشي (Ishtiaq Husain Qureshi) ، وصنّف ذلك المخطوط المكتشف على أنّه ينتمي إلى "أدب نصائح الملوك" أو "مرايا الأمراء" (Mirrors of princes) " بالإنجليزية أو (Fürstenspiegel) بالألمانية. عنوانه: " فتاوى جهانداري". كانت المخطوطة في الأصل مملوكة لمكتبة السلطان تيبو في سلطنة ميسور الهندية، حيث تم نقلها من هناك إلى لندن. ونظرًا لحقيقة أن الأرقام الثلاثة الأخيرة من تاريخ النسخ هي 115 (استنادًا إلى التقويم الهجري الإسلامي)، خلصت الدكتورة أفصار عمر سالم خان إلى أن المخطوطة نُسخَت من نسخة قديمة خلال القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي. ومع ذلك لم يتم تحديد أي نسخ أخرى حتى الآن، في الجملة الأخيرة من مقدمة فتاوى يعرف المؤلف نفسه بأنه "متمني الخير لبلاط السلطان، ضياء الدين برني" كتب عنها أبو محمد حبيب الله مقالة سنة 1941م بعنوان: "إعادة تقييم المصادر الأدبية لتاريخ ما قبل المغول" (Re-evaluation of the Literary Sources of Pre-Mughal History) وقدّم اشتياق حسين قريشي مقالة عنها سنة 1942م بعنوان : "إدارة سلطنة دهلي" (The Administration of the Sultanate of Dehli تأريخ لتلك الحقبة (Hardy Peter, 1978, P127). بعد ذلك وتحت إشراف البروفسور بيتر هاردي في مدرسة لندن للدراسات الشرقية والأفريقية (SOAS) ، كتبت أفصار عمر سالم خان (Afsar Umar Salim Khan) رسالة دكتوراه: أطروحة عن الأفكار السياسية لضياء الدين برني وترجمت بعض أجزاء من الفتاوى إلى الإنجليزية. ثم نشرت ترجمة مختصرة للفتاوى في المجلة الفصلية الهند في العصور الوسطى (Medieval India Quarterly) سنة 1957م. جمع أبو محمد حبيب أفصار عمر سالم خان مع مقدمة وخاتمة ونشرها في نفس المجلة سنة 1958م تحت عنوان: "النظرية السياسية لسلطنة دهلي" (The Political Theory of the Delhi Sultanate) وقام أبو محمد حبيب سنة 1961م بترجمة أجزاء إضافية من الفتاوى إلى الإنجليزية وكتب مقدمة جديدة لأفكار برني السياسية. قدم هذا الكتاب فتاوى جهانداري للعلماء والباحثين الناطقين باللغة الإنجليزية. ومع ذلك فإنّه فقط في سنة 1972 تمت ترجمة النص الكامل لفتاوى جهانداري إلى الإنجليزية بواسطة أفصار سالم خان التي أصبحت أستاذًا ورئيسًا لقسم العلوم السياسية في جامعة بيشاور باكستان (Seyed, 2017, 243) .

لكن حتى بعد اكتشاف المخطوطة والترجمة الإنجليزية الأولى لها من طرف الدكتورة أفصار عمر سالم خان ظلّ هذا العمل الاستثنائي في السياسة لضياء الدين برني غير معروف حتى منتصف القرن العشرين، تم تجاهل الفتاوى أو تهميشها بشكل عام من قبل علماء السياسة في الهند وباكستان وإيران؛ مثلاً في موسوعة برينستون

الأخيرة للفكر السياسي الإسلامي (The Princeton Encyclopedia of Islamic Political Thought)

الصادرة سنة 2013 لا يوجد مدخل لضياء الدين برني أو مؤلفه "فتاوى جهانداري" (Mehta, 1900, P20).

تعتبر فتاوى جهانداري من الأعمال الهندية الفارسية المكرسة حصرياً للنظرية السياسية خلال حقبة سلطنة دلهي؛ على عكس تاريخ فيروز شاهي لا يخاطب ضياء الدين برني الشخصيات أو الأحداث التاريخية لسلطنة دلهي في الفتاوى كتب فتاوى جهانداري بقصد واضح وهو تعليم الحكام المسلمين فن الحكم. تناولها المؤرخ الهندي الدكتور عرفان حبيب (Irfan Habib) تحت عنوان "آراء حول الحكومة" (Opinions on Government)، وتناولها المؤرخ الهندي الدكتور نلنجان ساركار (Nilanjan Sarkar) بالبحث تحت عنوان "مراسيم بشأن تنظيم العالم المحكوم" (Decrees on ordering the governed world) "وتناولتها الموسوعة البريطانية (2015) باسم "أحكام حول الحكومة الدنيوية" (Rulings on Temporal Government) (Seyed, 2017, 242).

بخصوص الأبحاث القليلة التي تناولت الفتاوى بعد ترجمتها للإنجليزية نجد: أن البروفسور بيتر هاردي (Peter Hardy) حلل وقرن تفكير ضياء الدين برني حول الحكومة في الفتاوى مع تفكير علماء مسلمين بارزين آخرين مثل الغزالي في نصيحة الملوك، أو ناصر الدين الطوسي وأخلاق ناصري (Hardy Peter, 1978)، وحاول المؤرخ الهندي الدكتور عرفان حبيب توضيح الأفكار الرئيسية لضياء الدين برني حول طبيعة الدولة وأهدافها ووظائفها (Irfan Habib, 1999, P19-36)، وركز نلنجان ساركار على توظيف برني لـ "صوت" السلطان محمود الغزنوي في الفتاوى كمستشار رئيسي للحكام (Sarkar, N, 2006, 327-356)، ثم ركز في بحث آخر على الممارسة السياسية لحكومة دلهي (دور الملك) التي قدمها برني (Sarkar, N, 2011, P407-424)، وركز البروفسور بلاك أنطوني (Black Antony) على العلاقات بين الأخلاق والسياسة في فتاوى جهانداري (Black Antony, 2011) وناقش المؤرخ الهندي البروفسور مظفر عالم (Muzaffar Alam) الاختلاف الجوهرى لبرني مع أسلافه في الفضاء الإسلامي مثل الغزالي أو نظام الملك الطوسي وكذلك معاصريه في الهند (Muzaffar Alam, 2004, P31)، كل هؤلاء ناقشوا فتاوى جهانداري من زوايا مختلفة (Seyed Hossein Zarhani, 2017, P244).

إضافة إلى ذلك قارن بعض العلماء برني وفتاويه بمفكرين سياسيين غير مسلمين، على سبيل المثال قارن الدكتور آرbind داس (Arbind Das) كتاب آرتاشاترا كاويليا (Kauāilya Arthashastra) مع فتاوى جهانداري حاول تحليل ومقارنة نصي "مرايا الأمراء" الهنديين في سياقاتهما التاريخية والثقافية والاجتماعية المختلفة، مع الإشارة إلى مواضيع مثل نظرية الملكية أو السيادة أو الإدارة أو العدل أو التنظيم المالي (Das Arbind, 1996)

وبالمثل قارن الباحث الفنلندي الدكتور سيروس فازليوس (Syros, Vasileios) فتاوى برني بأمير مكيافيلي، وأبرز أهمية أفكار برني السياسية من منظور متعدد الثقافات. يتم فصل برني ومكيافيلي حسب الزمان والمكان ويعيشان ويكتبان في سياقين سياسيين وثقافيين واجتماعيين مختلفين. ومع ذلك يقر سيروس بوجود بعض أوجه التشابه بين الأفكار الرئيسية لهذين الكاتبين. ويذكر أن أفكار برني مثل الصورة المتشائمة للطبيعة البشرية، والتمييز بين الأخلاق الشخصية والسياسة، وتعرض الحاكم للتهديدات المختلفة والأصول والآليات والغرض من الحكومة وسلطة الحاكم أثناء حالات الطوارئ "تجعله قريباً بشكل خاص من مكيافيلي (Syros, Vasileios, 2012, 545-573) .

من بين الأعمال الأكاديمية القليلة التي تناولت بالبحث "فتاوى جهانداري" لا نجد إجماعاً ليس فقط حول العناصر الرئيسية للمفهوم السياسي لضياء الدين برني، ولكن أيضاً حول تفسيرات عمله التي يشوبها التناقض؛ على سبيل المثال يصور المؤرخ الهندي البروفسور فيشواناث براساد فارما (Vishwanath Prasad Varma) برني على أنه بطل متعصب للإسلام دعا إلى النضال الكامل ضد الهندوسية. ويصور برني على أنه أصولي يروج لـ "إدارة دينية متشددة تقوم على التعصب العقائدي". ويزعم فارما أيضاً أن برني كان من أنصار الطبقة الأرستقراطية من النخب الدينية (Varma V.P, 1986, P218-220)، وقدم كل من محمد حبيب وأفصار برني كأول عالم دين يبرر القانون المدني بين المسلمين (Mohammad Habib and Afsar Umar Salim Khan, 1961) وبالمثل يصف البروفسور بلاك أنطوني (Black Antony) برني بأنه باحث استثنائي في رؤيته حول معالجة التعارض بين الدين والسياسة. ووفقاً لبلاك فإن "حجة برني تدور حول تمييز واضح بين سياسة الدولة والأخلاق الشخصية (Black Antony, 2011, P166) " وبالمثل فإن فتاوى جهانداري كما حدد المؤرخ الهندي الدكتور خان اقتدار عالم (Khan, Iqtidar Alam) تتيح لنا فهم مدنية سلطنة دلهي (Khan Iqtidar Alam, 1986, P5). ونقلاً عن محمد حبيب فإن الفتاوى توضح لنا أن سلطنة دلهي "لم تكن دولة ثيوقراطية بأي معنى للكلمة. لم يكن أساسها شريعة الإسلام، بل الضوابط أو قوانين الدولة التي سنّها الملك. لكن مظفر عالم ينفي أن يكون برني أول مفكر مسلم يبرر القانون المدني ويكتب: "هذا التقويم قد عفا عليه الزمن" (Muzaffar Alam, 2002, P220). فالتناقض واضح بين الباحثين الذين تناولوا كتاب "فتاوى جهانداري" (Seyed Hossein Zarhani: Op.cit, P242).

بنفس الطريقة هناك نقاش حول القيم الأساسية التي كان لها تأثير مباشر على الفتاوى؛ أشار روي هيمنانشو (Roy Himanshu) ومظفر إلى أن بعض الباحثين نظر إلى برني على أنه "محافظ وأصولي ومتعصب" لأنه كان عالمًا ذا عقلية شرعية معادية للهندوس (Roy Himanshu and Muzaffar Alam, 2017, P30) ،

بالمقابل تؤكد الموسوعة البريطانية أن الفتاوى كشفت "عن فلسفة دينية للتاريخ ترى الأحداث من خلال سير الرجال العظماء على أنها مظاهر للعناية الإلهية -Ziya 'al- (The Editors of Encyclopaedia Britannica: "Din Barani فبرني هنا متأثر بالتصوف (Seyed Hossein Zarhani, 2017, P242) .

يذهب الأستاذ صاحب عالم الأعظمي الندوي الزميل الباحث في مركز حسن بن محمد آل ثاني للدراسات التاريخية بالدوحة في مقاله " دور العلماء والمؤرخين في نقل النظريات السياسية الساسانية إلى الهند في عصر سلطنة دلهي كتاب (فتاوى جهانداري) نموذجاً"، إلى أن برني في كتابه "فتاوى جهانداري" تأثر بمنهج الأمير كيكاس في كتابه "قابوس نامه"، والوزير السلجوقي الكبير نظام الملك في كتابه "سياست نامه"، وغيرها من الكتب التي كتبت في المناطق الفارسية وآسيا الوسطى. ويؤكد على أن برني اطلع على هذه الكتب التراثية ونسج على منوالها في تدوين فتاويه (Saheb Alem Al-Adhami Al-Nadwi, 2018, P40) . واعتبر الدكتور جارف لال مهتا أن "فتاوى جهانداري" هي عمل مكمل ل "تاريخ فيروز شاهي" يلخص فيها الفلسفة السياسية للسلطنة ويتوسع في شرحها على أساس تاريخه، وهو يشرح من منظور تاريخي كيف خضعت النظرية الإسلامية الأصلية للملكية والمؤسسات السياسية الأجنبية التي تبناها الحكام الأتراك في دلهي، لتغييرات جذرية في السياق الهندي على مدى قرنين من الزمان (Mehta. J. L, 1900, P14) .

أخيراً لا يعرف على وجه اليقين متى أُلّف ضياء الدين برني كتاب الفتاوى لكن الثابت أنه أُلّف في آخر سني حياته والأرجح أنه كتبه بعد كتابه الأشهر "تاريخ فيروز شاهي"، والأرجح أيضاً أنه كتبه في عهد فيروز تغلق، حين لم يعد حظياً باعتبار عند سلطان دلهي الجديد؛ اعتبر الدكتور جارف لال مهتا أن "فتاوى جهانداري" هي عمل مكمل ل "تاريخ فيروز شاهي" (Mehta. J. L, 1900, P14) "ويؤكد البروفسور بيتر هاردي أن برني كان في السبعينيات من عمره عندما كتب فتاوى جهانداري وتاريخ فيروز شاهي (Hardy Peter, 1978, P127) وبحسب الدكتور آنرودا راي (Aniruddha Ray) يكون برني قد أكمل كتابه "تاريخ فيروز شاهي" سنة 1359م ويرجح احتمال أن يكون برني قد كتب "فتاوى جهانداري" كجزء أخير لتاريخه ذاك (Aniruddha Ray, 2019, P13) كما لو كان الفتاوى خلاصة واستنتاج لأهم القواعد التي ينبني عليها الحكم الجيد. لكن البروفسور بيتر جاكسون (Peter Jackson) يذهب إلى أن برني أتم كتابة تاريخه سنة 1357م، ولا يحسم في تاريخ كتابة الفتاوى بل يقول: فتاوى جهانداري الذي كتب في وقت ما في خمسينيات القرن الثالث عشر الميلادي (Peter Jackson, 1999, P50,52). بينما يُبعد الدكتور أنطوني بلاك النجعة حين يقول: من المحتمل أنه كتب فتاوى جهانداري (بالفارسية)

أثناء خدمته للسلطان محمد بن تغلق (Antony Black, 2011, P165)، مع العلم أن محمد بن تغلق حكم خلال (1324-1351)

4. كتاب "فتاوى جهانداري" شكلا ومضمونا

ينتمي كتاب "فتاوى جهانداري" إلى لون أدبي يُعرّف بأدب نصائح الملوك، وهذا النوع من الأدب يُعرّف على أنه تلك المؤلفات التي يسترشد بها أولي الأمر في سياسة الملك وتبدير أمر الرعية (بدوي، 1954، ص5-6) ويهتم أدب نصائح الملوك كنوع من الأدب السياسي أكثر ما يهتم بالجانب العملي - إذ لا يناقش شرعية الحكم ولا آلية وجوده ولا فلسفته السياسية - فهو يبحث في آداب السلوك والتعامل ويتناول السياسة العملية النفعية، فيرشد الحكام والأمراء والقادة ويعودهم على اتباع تقاليد الحكم وقواعد السياسة، كما يساعد الحاكم المتفدّ في أن يقبض على السلطة بيده لأطول مدة ممكنة (دمج محمد أحمد 1994، ص9). بذلك يمكن اعتبار رسائل وكتب أدب نصائح الملوك على أنها دليل إرشادي عملي لصنّاع القرار.

ميز بعض الباحثين بين نوعين متميزين من الأطروحات السياسية الهندية الإسلامية التي كان لها تأثير هائل على السياسة الإسلامية في الهند ما قبل الاستعمار: الأول هو الأدب الذي تناول السلوك السياسي الصحيح، والثاني متعلق بالأخلاق. يمكن النظر إلى فتاوى جهانداري على أنها نوع مختلف من الأدب الذي يقلد كتاب سياست نامه للوزير السلجوقي نظام الملك، وتأكيداً على ذلك فإن فتاوى جهانداري - مثل كوايلا آرثايترا أو سياست نامه - ليست وصفاً تاريخياً ولكنه عمل نظري يقدم أيضاً نصائح عملية في فن الحكم. وقد استنتج بعض الباحثين بعد مراجعة شكل وهيكل فتاوى جهانداري أنها تأثرت بكتاب سياست نامه (Seyed Hossein Zarhani, 2017, P250) ملخص القول أن كتاب فتاوى جهانداري هو كتاب في الفلسفة السياسية يتناول تقنيات وقواعد الحكم.

شكلياً يتألف كتاب فتاوى جهانداري من مقدمة وجيزة جداً أتت فيها على الله الذي زين السلاطين الحافظين للدين والحكام الأقوياء بفضيلة العدل، وجعل أهل العالم مطيعين لأوامرهم وأنصاراً دائمين لحكمهم، وصلّ فيها على النبي سيد الأنام وعلى أصحابه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي بن أبي طالب وعلى الحسن والحسين. وبعد هذه المقدمة نجد أربعة وعشرون فصلاً، فضلّ ضياء الدين استبدال كلمة فصل بالنصيحة، وبالتالي الفتاوى مؤلفة من أربع وعشرين نصيحة، في مطلع كل نصيحة يقدّم فكرته أو نظريته الأساسية ثم يدلّل عليها مسترشداً بالتاريخ غالباً، سيما الأكاسرة ملوك الفرس وبالأخص كسرى أنوشيروان، والخلفاء الراشدين وخاصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ونجد فيها ذكراً لملوك وسلاطين مسلمين وغير مسلمين مثل الإسكندر المقدوني ومستشاره الفيلسوف أرسطو كما استرشد برني بالأدلة الشرعية من الكتاب والسنة، وأقوال الصحابة، ثم أقوال الحكماء. وفي معظم

الكتاب يعطي ضياء الدين برني نصائحه وإرشاداته على لسان سلطانه المفضل السلطان محمود الغزنوي إذ جعل هذا الأخير يعطي النصائح والإرشادات كوصايا لأبنائه؛ فكثيرا ما نقرأ في الفتاوى: يا أبناء محمود وملوك الإسلام، يا بني محمود وملوك الأرض، وإن كان المقصود هو توجيه تلك النصائح والإرشادات العملية إلى جميع ملوك وسلاطين الإسلام من طرف شخصية أثبتت جدارتها في الحكم والقيادة وحسن الإدارة وتحقيق رفاهية الدولة ومنعتها إلى جانب فتوحاتها لحساب دار الإسلام، ثم وضع برني خاتمة للفتاوى.

سعى ضياء الدين برني إلى تذليل الصعوبات السياسية التي واجهت السلاطين المسلمين حكام سلطنة دلهي بعد انهيار الخلافة العباسية في بغداد، من أجل ضمان قوة وتماسك وديمومة السلطنة في وسط هندوسي، ومن أجل اكتساب شرعية بديلة إن جاز التعبير عن الشرعية التي كان يستمدّها سلاطين دلهي من خلفاء بني العباس، فاختار الخوض في أدب نصائح الملوك لِيُسَيِّدِي واجب النصح الشرعي لولاة الأمور في دلهي. ومع أنّ كتب ورسائل أدب نصائح الملوك تشترك عموما في الكثير من المواضيع، غير أنّ ما تفرّد به ضياء الدين برني عن غيره في فتاويه ستة مسائل: الأولى تفرقه بين الحياة الخاصة للملك كبشر، وحياته العامة كحاكم، والمسألة الثانية في العلاقة بين الدين والدولة، والثالثة سعيه لوضع قاعدة عملية تصلح للجمع بين متناقضين؛ منهج حياة الأكاسرة ومنهج حياة الخلفاء الراشدين، والرابعة في تخيير الهندوس بين القتل أو الإسلام، والخامسة وضع قوانين عرفية أو مدنية أسماها برني "الضوابط" وأوجب على الملوك والسلاطين المسلمين ضرورة اتخاذها والتزامها، والسادسة تكريس الطبقة وعنصرية العرق .

بالنسبة للمسألة الأولى يقول برني على لسان محمود الغزنوي في النصيحة الثانية بعنوان: في آثار حسن عقيدة الملك: "يا أبناء محمود، يجب أن تعلموا على وجه اليقين أن نجاح وفشل السلطان المسلم في إدارة شؤون الدولة والرعية يعتمد على حسن عقيدته الدينية وسوءها" ثم يوضح برني على لسان محمود أنّه: "إذا كان إيمان الملك بدين الرسول صل الله عليه وسلم ثابت لا يتزعزع، فلا يؤخذ عليه تساهله في أداء نوافل الصيام والصلاة، وبالمثل إذا صحّت عقيدته تغفر له الميزات وحياة الترف والأبهة التي ينغمس فيها مراعاة لرسوخ عقيدته. ولأنّه يحمي الدين الإسلامي وينشره، يتجاوز عن ذنوبه التي اقتضتها بشريته وتمحى من صحائف أعماله. أليس من العجيب أنّه بالرغم من تقصيره في النوافل وانغماسه في الميزات اصطفاه الله ليكون من "الأبدال" وجعله "قطب" الدنيا وحاكما على الرعية؟ (Mohammad Habib, Afsar Umar Salim Khan, 1961, P2-3) هكذا يقرر برني أن سياسة الدولة مفارقة للحياة الشخصية للسلطان، وأنّ ذنوبه تُغتفر بقدر خدمته للدين والدولة.

أما المسألة الثانية فقد صاغ برني تصوّراً غير مسبوق للعلاقة النازمة بين الدين والدولة صاغ ضياء الدين برني في فتاويه ضمن النصيحة الثالثة رواية هجينة باستخدام كيومرث (Keyumarth) الرجل الأسطوري الأول في الأساطير الفارسية وشيث الشخصية التوراتية وابن آدم. قدّم كيومارث وشيث كأخوين توأمين وذكر أنهما كانا أول ملك وأول نبي على التوالي، يجعل ضياء الدين برني السلطان محمود يقرأ لأبنائه من وصايا جمشيد (Jamshid)(عهد جمشيد) التي كتبها جمشيد لأحفاده: يا أحفاد كيومرث الذين تقلّدوا عرش الملّك، يجب أن تعلموا أنّ النبوة قد أعطيت لعننا الأكبر شيث بن آدم ونسله وأعطيت الملوكية لجدنا كيومرث ونسله. لذلك أرشد الله القدير شيث ونسله بالوحي الإلهي، لذلك تنزهت أقوالهم وأفعالهم عن الخطأ. ولكن بالنسبة لنا نحن أحفاد كيومرث والذين يتحملون أعباء الحكم، فقد أعطانا سيف الحكم، وأعطانا وزراء ذوو خبرة لإرشاد قلوبنا، حتى نتمكن من خلال سياستنا وضربات سيفنا من إبقاء العالم معموراً ومزدهراً ومنظماً (Mohammad Habib, Afsar Umar, Salim Khan, 1961, P8).

ثم نجد برني يؤكد على هذا الفصل بين الديني والدنيوي في النصيحة الرابعة والعشرين باستخدام نفس تلك الرواية إذ يقول: تم الاقتباس من تاريخ أمم الأولين الرواية التالية: كان لآدم ولدان توأمين هما شيث وكيومرث، أوحى إلى آدم بأن شيث وذريته ستكون فيهم النبوة ويهدون الناس إلى الصراط المستقيم، بينما يكون الحكم والملك في كيومرث وذريته، فيحافظون على نظام العالم. أحس كيومرث أنّ شخصيته كانت تتدهور بسبب صفاته الملوكية فاشتكى لأخيه وبكى أمامه بمرارة. فما كان من شيث إلّا أن واساه قائلاً: " لا تقنط، لأنك قد خلقت مثلي تماماً بيد العناية الإلهية وبسبب اتصافك بالمهابة والهيبة والهيمنة والجلالة، أصبح العالم مزدهراً وبهناً الناس في رغد العيش لا يمكن فرض أوامر الشريعة التي تُوحى إليّ إلّا إذا تم تنظيم الرعية بشكل صحيح، لا يمكن دعوة الرجال إلى طريق الله المستقيم إذا كانوا في اضطراب وفوضى وحرمان وبؤس (Mohammad Habib, Afsar Umar, Salim Khan, 1961, P114)

لا يغفل برني في فتاويه الجريئة طريق الخلاص الأخروي للملوك والسلطين المسلمين الذين يعيشون ملذّاتهم الخاصة ويعيشون عيشة الأكاسرة، فيسوق حبل النجاة الأخروي على يد النبي شيث في روايته التالية ضمن النصيحة الأخيرة: " حين سأل كيومرث شقيقه النبي شيث عن العلامة التي يوقن بها بخلاصه يوم القيامة، أجابه شيث: "إذا كان قلبك ينفر من الدنيا ويميل إلى الله والدّار الآخرة، وأنت موقن بأن من أراد الفوز برضا الله ونيل الدرجات العلى يوم القيامة لا ينبغي أن يتعلّق قلبه بمكاسب الحياة الدنيا، فيدفعك يقينك ذاك إلى دوام المسكنة والتّضرّع إلى الله فتلك علامة السعادة والخلاص (Mohammad Habib, Afsar Umar, Salim Khan, 1961, P114-115) ثم يعقّب برني عن تلك الرواية بمن تشبّه بها من سلاطين الإسلام، وليس له مثال أكبر من

سلطانه الأثير، إذ يقول: بلغ السلطان محمود إلى هذا المقام الإيماني بعد مجاهدة نفسه عشرين عامًا. لقد غلب التضرع والتواضع على محمود لدرجة أن ذلك صار فيه سجيّة وبسبب ذلك تفيض دموعه وهو يناجي ربه

(Mohammad Habib, Afsar Umar Salim Khan, 1961, P114-115)

هكذا ولأول مرة في الفكر السياسي الإسلامي يفرق ضياء الدين برني صراحة بين النبوة وفن الحكم، بين الديني أو دينداري (Dindari) والدنيوي أو جهانداري (Jahandari) وهما كلمتان رئيسيتان استخدمهما برني لتسليط الضوء على هذا التباين. يرتبط دينداري بالعالم الروحي والإلهي ويتعامل جهانداري مع الشؤون الدنيوية والقوة الزمنية: الدينداري هو ما فعله النبي محمد بن عبد الله القرشي، لذلك فإن كل من يتبع أسلوب حياته وخطبه وممارساته هو متدين دينداري. والجهانداري وفن الحكم هو كل ما فعله كسرى خسرو پرويز الساساني وأسلافه في بلاد فارس ثم يمكن لأي شخص يتبع أسلوب حياته وخطبه وممارساته أن يحكم ويطيعه العالم بأسره (Seyed

Hosseini Zarhani, 2017, P257)

بالنسبة للمسألة الثالثة والتي اجتهد فيها برني لوضع قاعدة عملية تصلح للجمع بين متناقضين؛ منهج حياة الأكاسرة ومنهج حياة النبي والخلفاء الراشدين، وهي قضية حسب البروفسور مظفر عالم حاول المنظرون في الماضي حلّها إما بالقبول الصامت والتكيف مع ما هو غير إسلامي - كما كان الحال في التعليق السياسي لنظام الملك - أو بمحاولة إعادة تفسير الشريعة وبالتالي تكييفها مع التراكمات غير الإسلامية، ويمكن العثور على توضيح لهذا التفسير في الكتابات السياسية للإمام الغزالي. (Muzaffar Alam, 2004, P29) إلا أن ضياء الدين برني وجد لها الحل التالي ضمن النصيحة التاسعة المعنونة بالتناقضات بين مبادئ الإسلام والملوكية. إذ يقول: إذا كانت النبوة هي كمال الدين فإن الملك هو كمال الحظ الدنيوي، وهذان الكمالان متعارضان ومتناقضان مع بعضهما البعض والجمع بينهما ليس ضمن حدود الاحتمال. فالخضوع لله هو شرط الدين الضروري، وشروط الخضوع الضرورية هي التواضع والتضرع والعجز والافتقار والتذلل ونكران الذات والمسكنة والدموع. ومن ناحية أخرى فإن شروط الملوكية التي هي كمال الحظ الدنيوي هي القوة والكبرياء والهيبة والأبهة والعظمة والمجد وعلو المنزلة والقدر وتلك الصفات هي من صفات الله، ولما كانت الملوكية نيابة وخلافة عن الله فلا يمكن أن تكون ملوكية بالتمسك بفضائل الخضوع وبالتالي أصبح من الضروري على حكام الإسلام اتباع سياسة أكاسرة الفرس من أجل ضمان إعلاء كلمة الله، وهيمنة الدين الإسلامي على الدين كله، ومحاربة أهل الكفر وتنفيذ شريعة الله، والحفاظ على

سلطتهم (Mohammad Habib, Afsar Umar Salim Khan, 1961, P39)

ويقول برني بصراحة لافتة: ولكن مثلما يُسمح بتناول الجيف رغم حرمتها عند الضرورة القصوى فبالمثل يجب اعتبار عادات وتقاليد أكاسرة الفرس الوثنيين - اتّخاذ التاج والعرش، علو القدر، الكبرياء ، الاحتجاب عن الناس قواعد الجلوس والاستيقاظ في بلاط الملك، القصور الباذخة، مراسم البلاط، مطالبة الناس بالسجود أمام الملك، جمع الكنوز، الاستحواذ على الممتلكات الخاصة، وارتداء الحلي الذهبية والجواهر والملابس الحريرية، وجعل الآخرين يرتدونها، وإعدام الناس على أساس سياسة الدولة، واتّخاذ الحريم الكبير، والإنفاق بتهور دون وجه حق، والاستيلاء على البلدان غصبا - من وجهة نظر الحقيقة والمذهب الصحيح مثل أكل الجيفة عند الضرورة القصوى: وعلى الملوك المتدينين أن يخافوا وأن يندموا على مثل هذه الأعمال التي تشكل خطورة على الدين، وأن يستغفروا الله في الليالي بالبكاء والمسكنة ليقينهم أن كل عادات الملوكية وطرقها مخالفة لسنة الرسول، وأنهم متورطون في هذه المخالفة هم وأتباعهم وخدمهم (Mohammad Habib, Afsar Umar Salim Khan, 1961, P40).

فيما يتعلّق بالمسألة الرابعة بخصوص تخيير الهندوس بين القتل والإسلام فهي من أعاجيبه، إذ خالف ضياء الدين برني رغم خلفيته الفقهية والتاريخية ما هو معروف من الدين بالضرورة وهو أنّه لا إكراه في الدين، فراح في النصيحة الحادية عشر المعنونة بـ "ترسيخ الحقيقة في المركز" يدعو إلى صراع شامل ضد الهندوسية؛ يقول برني: لن يتمكن الملك المسلم من ترسيخ التوحيد وسيادة الإسلام إلا إذا سعى بكل جرائته لدحر الكفر وذبح أئمّته الذين يمثلهم في الهند البراهمة. يجب أن يتخذ قراراً حازماً للتغلب على الكفار وأسرهم واستعبادهم وتحطيمهم. يجب أن تتركز كل قوة وبأس الملك ومحاربي الإسلام المباركين في الغزوات والجهاد في سبيل الله؛ وعليهم أن يخطروا بأنفسهم لتتغلّب عقيدة الحق وتقتلع العقائد الباطلة، وهكذا سيبدو كما لو أن هذه العقائد الباطلة لم تكن موجودة قط لأنها حُرمت من كل بريقتها. من ناحية أخرى إذا كان الملك المسلم على الرغم من السلطة والموقع اللذين منحهما الله له، يكفي فقط بأخذ الجزية والخراج من الهندوس، ويحمي الكفار والكفر ويرفض المخاطرة بسلطته في محاولة الإطاحة بهم، فما هي الفروق في هذا الصدد بين ملوك الإسلام وقادة الكفر؟ (Mohammad Habib, Afsar Umar Salim Khan, 1961, P46)

ويواصل برني في سرد وصية محمود لأبنائه ملوك الإسلام حيث يحنّهم على ضرورة التقدّم للجهاد في سبيل الله والتضحية بكل غال لاقتلاع الكفر وأهله وكل أهل الأديان والعقائد الباطلة، حتى يعذرون يوم القيامة أمام الله ورسوله وتغفر لهم ذنوبهم والنعم الذي تقلّبوا فيه، ويحلّ عليهم رضوان الله وثناء النبيين والصديقين. ويدعوهم إلى أنّه لا يجب عليهم الرضا بمجرد أخذ الجزية والخراج من الكافرين، بل عليهم الاجتهاد ليلا ونهارا في إهانة وسحق

الشرك والمشركين حتى ينعموا يوم القيامة برؤية الله إلى الأبد ويحظون عنده بمقعد صدق في نعيم مقيم (Mohammad Habib, Afsar Umar Salim Khan, 1961, P47)

هذه المسألة الخطيرة التي خصّص لها برني جزءا هاما من النصيحة الحادية عشر، سبق أن ذكرها عرضا في النصيحة الثانية المعنونة ب: "في آثار حسن عقيدة الملك" إذ يتحدث ضياء الدين برني كيف حارب محمود الفرق الضالة مثل الدهرية، وكيف حطّم الأصنام، ويذكر برني أنّ السلطان محمود كانت له أمنيتان حال الأجل دون أن يحققهما: الأولى أراد الاستيلاء على بغداد التي كانت مليئة بالطوائف الضالة والأديان والعقائد الباطلة حتى يطهرها من جميع مخالفين الشريعة والثانية هي أنّه أراد غزو الهند مرة أخرى من أجل التصفية الكاملة للهندوسية؛ يخبرنا برني أن محمود "لو غزا الهند مرة أخرى بالقوة والهيبة والجنود والخدم والمعدات التي يمتلكها، لكان قد قتل جميع البراهمة الكفرة المشركين في تلك البلاد الواسعة والشاسعة!!!"، كان سيقتل مائتي ألف أو ثلاثمائة ألف من القادة الهندوس ولن يغمد سيفه الذي يقتل الهندوس إلا بعد أن تسلم الهند بأكملها وتشهد بأنه لا إله إلا الله محمد رسول الله!!! ويقول برني: ولأن محمود شافعي المذهب، فبحسب برني فإنّ الإمام الشافعي أفتى بأنّه ليس أمام الهندوس إلا إحدى خصلتين: القتل أو الإسلام (Mohammad Habib, Afsar Umar Salim Khan, 1961, P6) وهذا خطأ فاحش طبعاً والشافعي بريء منه، تقول الدكتورة أقصار عمر سالم خان مترجمة الفتاوى تعليقا على موقف برني المتعصّب: فيما يتعلق بمسألة الهندوس، كان برني مختل عقليا (Mohammad Habib, Afsar Umar Salim Khan, 1961, P6)

ما مدى تأثير "فتاوى جهانداري" على النخبة السياسية والسلطة الحاكمة بسلطنة دلهي؟

نحن نعلم جيّداً أن هذه الأفكار بالكاد يمكن أن تؤثر على سياسات أقوى الحكام الأتراك الأوائل لشمال الهند؛ فقد استند السلطان شمس الدين ألتمش إلى الحجّة القائلة بأن المسلمين في الهند كانوا دائماً من حيث القوة العددية مثل الملح في الطعام وبالتالي لا يمكنهم شن حرب شاملة سواء لإجبار الكفار على قبول الإسلام، أو إبادتهم بسبب رفضهم اعتناق الإسلام. غياث الدين بلبان (حكم من 1266 إلى 1287م) الذي هيمن على سياسة دلهي أولاً كزعيم فصيل قوي ثم كسلطان، احتفظ بمسافة بينه وبين علماء الدين والمنظرين من أمثال برني، معتبرا إياهم مجرد علماء دنيا كان علاء الدين خليجي قد أدار نقاشات شهيرة حول مثل هذه الأمور مع حاشيته، لكنه في الممارسة اتبع القاعدة التي رأى أنها تخدم مصالح سلطته وشعبه على أفضل وجه. محمد بن تغلق (حكم 1324-1351) لم يحطّ مطلقاً من قدر الهندوس بل وظّفهم في المناصب العليا بينما كان خليفته فيروز تغلق (حكم من 1351 إلى 1388) مهتماً بالتقاليد والآثار الهندوسية على الرغم من ميوله الدينية المحافظة. سكندر بن بهلول

اللودهي (حكم من 1489 إلى 1517) - ثاني سلاطين السلالة اللودية التي حكمت سلطنة دلهي - على الرغم من أنه يعتبر أحيانًا متعصبًا إلا أنه شجع الهندوس على تعلم اللغة الفارسية لمشاركتهم الكاملة في إدارة الدولة (Muzaffar Alam, 2004, P42)

بل لقد اعترف ضياء الدين برني بأن سلاطين دلهي خالفوا رؤيته في ممارساتهم العملية؛ ففي النصيحة الحادية عشرة في ترسيخ الحقيقة في المركز، يعترف برني بأن الملوك المسلمين في الهند متسامحون، ويقول متأسفًا: ولكن في واقع الأمر لا يمكن إثبات الحقيقة في المركز، ولا يمكن أن تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى لأن ملوك الإسلام على الرغم من القوة والهيبة التي نالها الإسلام على هذه الأرض، وعلى الرغم من سبعة قرون من إيمانهم المتوارث بالله إلا أنهم يسمحون في عاصمتهم (دلهي) وفي مدن المسلمين للكفار بممارسة شعائهم الشركية وعبادة الأصنام علانية دون خوف وبإصرار أكثر من ذي قبل. ويواصل أنتمهم تعليم مبادئ عقيدتهم الزائفة كما يزينون أصنامهم ويحتفلون بها في مهرجاناتهم بقرع الطبول والغناء والرقص (Mohammad Habib, Afsar Umar Salim Khan, 1961, P48)

بل وأكثر من ذلك، إذ يقول برني مغتاظًا: وفي عاصمتهم (دلهي) باعتبارها أرفع مكانة بين مدن المملكة فإن الملك المسلم لا يسمح فقط بل يسعد بحقيقة أن الكفار والمشركين وعباد الأوثان وعباد روث البقر يبنون بعاصمتهم منازل مثل القصور، ويلبسون ثياب الديباج ويركبون الخيول العربية المزينة بزخارف الذهب والفضة. إنهم أقوياء ويعيشون في ترف وراحة، ويستخدمون أهل الإسلام خدما لهم يركضون أمام خيولهم، ويطلب المحتاجون من المسلمين الصدقات على أبوابهم وفي عاصمة الإسلام تجد أن منهم الرؤساء الكبار "الرياس"، والرؤساء الصغار (ranas) المحاربون (thakurs)، والصيارفة والكتبة، والكهنة، فكيف والحال كذلك يمكن أن يسود الإيمان على العقائد الباطلة أو أن يثبت الحق في المركز؟ (Mohammad Habib, Afsar Umar Salim Khan, 1961, P48).

بخصوص المسألة الخامسة المتمثلة في وضع قوانين عرفية أو مدنية أسماها برني "الضوابط" وأوجب على الملوك والسلاطين المسلمين ضرورة اتخاذها والتزامها، فهو يتحدث ضمن النصيحة الرابعة عشر حول "ضوابط" الدولة فيقول بأنه لا يمكن إنشاء منصب كبير ومسؤول مثل الملوكية ولا يمكن السيطرة على شؤون الرجال دون قوانين دائمة يتفق عليها ذو العقول وتتمحّص عن نصيحة ذوي الأبواب. قانون الدولة (الضابط) في أسلوب الإدارة عند برني هو قاعدة عمل فرضها الملك كواجب إلزامي على نفسه لتحقيق رفاهية الدولة، والتي لا ينحرف عنها مطلقًا. وفقًا لبرني كان تطبيق الشريعة هو المثل الأعلى للحكم، ولكن نظرًا للظروف السائدة لا يمكن التعامل مع الشريعة إلا من خلال أنظمة الدولة الأكثر دينوية "ضوابط" (Gerhard Bowering and others, 2013, P48).

(P252) هناك الكثير من الضوابط التي ينبغي تبنيها أو وضعها لتحقيق سياسة الدولة المتمثلة في المنفعة المباشرة

والرفاهية القصوى (Mohammad Habib, Afsar Umar Salim Khan, 1961, P64)

ثم يذكر برني أربعة شروط لصياغة ضوابط جديدة إذا تعذر على الملك بسبب الظروف تبني الضوابط القديمة الجيدة وتلك الشروط هي: 1. يجب ألا تتعارض أحكام "الضوابط" مع أحكام الشريعة، ولا تؤدي إلى الحط من شأن الأمور الشرعية 2. يجب أن يؤدي تطبيق الضوابط إلى زيادة ولاء وإخلاص الخاصة وزيادة آمال العامة، وإلى كسب الخير وإحباط الشر يجب ألا تكون الضوابط سببا للكراهية والمشقة والاضطراب. 3. يجب أن ضوابط الملوك الأتقياء مرجعا للضوابط الجديدة ولا ينبغي حال تطبيقها أن تعيد إحياء عادات وسوابق الحكام الفجرة أو أعراف الطغاة 4. إذا كان في هذه القوانين ما يخالف السنة، ومع ذلك وجدت أن إنفاذها ضروري من باب الضرورات تبيح المحظورات فلا ينبغي عليك اعتبارها عادلة وصحيحة بل يجب أن تقدم الكثير من الصدقات وأعمال البر كتعويض وأن تخاف من الإثم الذي تفعله. مثال على ذلك الضوابط التي اتخذها الملوك المستبدين القدامى المتعلقة الوقوف الشبيه بالركوع، والسجود بين أيديهم والتي أريد منها إثبات علو قدرهم وسمو منزلتهم على من سواهم، والتي تبناها فيما بعد الملوك المسلمين، ثم يذكر برني ضوابط الملوك الطغاة المخالفة للشريعة والمصادمة للفطرة، والتي لا ينبغي أن يجترأ عليها ملوك الإسلام، ويحذر من ذلك على لسان سلطانه المفضل

محمود الغزنوي (Mohammad Habib, Afsar Umar Salim Khan, 1961, P65,67)

المسألة السادسة هي تكريسه للتبعية وعنصرية العرق، وربما كان مدفوعا لهذه النزعة بسبب عقدة تفوق الجنس التركي الذي كان ينتمي إليه، وربما بسبب ما آل إليه أمره وهو ابن عائلة وجيهة خدمت سلاطين دلهي، وهذه النزعة نجدها بين ثاينا الكثير من نصائح الفتاوى إلا أنه جعل لها فصلا خاصا أو نصيحة خاصة هي النصيحة التاسعة عشر: في الأصل النبيل لأنصار الملك. والنصيحة الحادية والعشرون: حول ذوو النسب الرفيع وذوو النسب الوضيع في الأولى يذهب برني إلى أن حكماء العالم اتفقوا على أن الملك لا يستطيع بنفسه القيام بجميع واجبات الإدارة التي سيحاسبه الله عليها حسابا عسيرا، لذلك فإن خلاصه يوم القيامة يكون بحسن اختياره لوزرائه ومساعديه وأعدائه؛ يقول برني: تم إثبات المبدأ التالي من خلال تجربة الحكماء والعلماء من المجتمعات القديمة والحديثة على حد سواء ولا يمكن الاختلاف حوله: أن المنحط والوضيع النسب والكافر لا يستطيع القيام بأي عمل ديني أو دنيوي يتوافق مع العلم أو المنطق. كلما عين الملك هذه المجموعة الخبيثة في مناصب دينية أو دنيوية، وباعتباره القائد الأعلى وتلك نعمة من نعم الله عليه، فهو لا يجعل من هؤلاء الناس - الذين ينتزّه عن

صحبتهم الأتقياء - شركاؤه ولكنه يمنحهم أيضاً حرية التصرف، سيتعين عليه أن يجيب أمام الله يوم القيامة على كل ما يفعلونه نيابة عنه. أليس من الغريب أن يتمتع هؤلاء السادة البائسون بمزايا ورفاهية المنصب، بينما يتعين على الملك أن يحاسب على آثامهم أمام الله؟ (Mohammad Habib, Afsar Umar Salim Khan, 1961, P92).

في النصيحة الحادية والعشرون: حول ذوو النسب الرفيع وذوو النسب الوضيع؛ لقد قيل أن جميع الناس خلقوا متساوين، متساوون في التكوين والمظهر، وأن كل اختلاف يظهر بينهم مرده إلى تأثير طباعهم ونتائج أفعالهم (لكن برني لا يوافق على مبدأ المساواة هذا، ويشعر في إبداء آرائه الخاصة).

بحسب برني فإن فضائل ورذائل الرجال وزعت على أرواحهم منذ الأزل. وأن أفعال وأعمال الرجال تقدير إلهي: عندما يغرس الله القدير في الإنسان الخير أو الشر، الفضيلة أو الرذيلة، فإنه يمنحه أيضاً ملكة التعبير عن ذلك الخير أو الشر أو الفضيلة أو الرذيلة. خلال تنامي عدد أبناء آدم في الجيل الأول وامتلاء بهم العالم، احتاج الرجال إلى كل شيء يحفظ وجودهم، فألهم الله القدير عقولهم بكل ما يحتاجونه؛ وهكذا ألهم بعض العقول فن الحروف والكتابة، وأخرى الفروسية، والبعض الآخر النسيج والحداة والنجارة. لذا فإن جميع الفنون الحسنة والسيئة؛ من الكتابة والفروسية إلى الحلاقة والدباغة - وفقاً للفضائل والرذائل التي جبلت عليها أرواحهم - تم إيصالها إلى عقول وأفئدة الرجال (Mohammad Habib, Afsar Umar Salim Khan, 1961, P97).

يواصل برني القول: بما أن الامتياز قد تم وضعه في أولئك الذين تبنوا المهن النبيلة، فإنهم وحدهم قادرون على الفضائل المروءة والكرم والشجاعة والمآثر والأعمال الصالحة والصدق والوفاء بالوعود وحماية الطوائف الأخرى والولاء والبصيرة والعدل والإنصاف والاعتراف بالحقوق وشكر النعم التي نالها والخوف من الله. وبالتالي يقال لأحد هؤلاء أنه نبيل وحر وفاضل ومتدين وذو نسب رفيع، وتستحق هذه الفئة بمفردها الوظائف والمناصب في المملكة الملك، ونتيجة لأعمالهم يتم تعزيز وتزيين حكومة الملك (Mohammad Habib, Afsar Umar Salim Khan, 1961, P97-98).

من ناحية أخرى ذوو الأنساب الوضيعة الذين ألهموا ممارسة الفنون الأساسية، والمهن المنحطة، لا يتأتى منهم سوى الرذائل والباطل والشح والاختلاس والظلم والأكاذيب والكلام البذيء والقسوة وعدم الاعتراف بالحقوق والوقاحة وسفك الدماء والنذالة والشعوذة والفساد. لذلك يطلق على أحدهم وضيع النسب، حقير ودنيء وعديم القيمة ووقع وغيرها من المثالب فإذا أكرم الملك هذه الفئة من الناس - الذين لم تكن طبيعتهم الأصلية متأصلة في النذالة والشر فحسب بل تم تطويرها عن كريق الوراثة - وقربهم إليه وأعطاهم المناصب في مملكته، فإنه نتيجة لأفعالهم

الشنيعية ستذهب هيبة الملك وتصبح رعيته في بؤس، ولن تحقق مملكته أهدافها، وسيحاسب ويخزى يوم القيامة إن ترقية المنحطين وذوو الأنساب الوضيعة لا يجلب أي ميزة في هذا العالم، ثم إنه من المشين التصرف ضد حكمة الخالق. (Mohammad Habib, Afsar Umar Salim Khan, 1961, P98)

هل كان ضياء الدين برني يروج للتسلسل الهرمي أو النظام الطبقي بين المجتمعات المسلمة في شبه القارة الهندية؟ بالنسبة للبروفسور مظفر عالم على عكس ما يعتقده الكثيرون فإن برني من خلال هذه النظرة الأرستقراطية للسلطة لا يتبع النماذج المدنية (الإيرانية أو الهندية) إذ أنّ مصالح المجتمع المسلم هي التي تحدّد ملامح أفكار برني حول مسألة العرق والوراثة؛ فقد رأى برني كمؤرخ أنّه خلال أوقات الاضطرابات السياسية "تؤدي التغييرات المتكررة داخل الطبقات الحاكمة إلى تدمير العائلات المسلمة العريقة"، وبالتالي الحفاظ على هذه العائلات العريقة من الطبقة العليا - التي كانت بالفعل تشغل مناصب مرموقة إدارية أو عسكرية مختلفة - من شأنه أن يؤدي إلى ظهور حكام أكثر قدرة ويخدم على المدى الطويل مصالح المسلمين، استنتج مظفر عالم أن هذا التسلسل الهرمي "كان خيارًا واعٍ مارسه برني لخدمة المصالح الطائفية الضيقة للنظام الإسلامي المبكر في الهند (Muzaffar Alam, 2004, P41-42)

إلى جانب تلك القضايا الست ومن وجهة نظر التاريخ الاقتصادي فإن ضياء الدين برني كان أول مؤرخ في عصره يوضح أن فرض الضرائب المفرطة يعيق الإنتاج الزراعي، وبالتالي يؤدي إلى تراجع الإيرادات (Aniruddha Ray, 2019, P13)، ويخصّص النصيحة التاسعة لضرورة أن يراقب الملوك أسعار البضائع والسلع ويضربوا بيد من حديد على المحتكرين وأكد برني على رؤية اقتصادية متكاملة ساقها في النصيحة التاسعة على لسان السلطان محمود على الشكل التالي: قال السلطان محمود: يا أبناء محمود وملوك الإسلام، يجب أن تعلموا على وجه اليقين أن جميع سياسات وشؤون المملكة مترابطة؛ على سبيل المثال، مثلما لا يمكن للجيش أن يصبح مستقرًا بدون رواتب من الخزانة، فبالمثل لا يمكن استقراره بدون انخفاض أسعار السلع، ومثلما أن رخص السلع ضروري للتنظيم السليم للجيش، فلا يمكن أن يكون هناك رخاء أو ازدهار أو استقرار بدون تيسر سبل العيش لعامة الناس (Mohammad Habib, Afsar Umar Salim Khan, 1961, P34) .

تلكم هي المسائل الست التي نرى أن ضياء الدين برني تفرّد بها عن بقية من كتبوا في فن أدب نصائح الملوك وجعلت منه شخصية استثنائية في عصره، ويحسن في ختام هذه الورقة العلمية أن نسرد عناوين النصائح الأربعة والعشرين ومضمون خاتمة الفتاوى، بالنسبة للأولى فهي كالتالي:

النصيحة الأولى: في السلامة الشخصية للملك.

النصيحة الثانية: في آثار حسن عقيدة الملك.

النصيحة الثالثة: في بركات الاستشارة والنصيحة.

النصيحة الرابعة: في العزم الحازم؛ الفرق بين الحكم الحازم والطغيان والاستبداد.

النصيحة الخامسة: في عدالة الملك.

النصيحة السادسة: في رُتب الموظفين والأعيان.

النصيحة السابعة: في الجيش.

النصيحة الثامنة: 1. بشأن رجال المخابرات (الجواسيس).

2. كانت الخلافة الراشدة مفصلاً مهماً في تاريخ البشرية - تعود البشرية إلى مناهجها القديمة.

النصيحة التاسعة: 1. مراقبة الأسعار.

2. التناقضات بين مبادئ الإسلام والملوكية.

النصيحة العاشرة: في قيمة الوقت عند الملك.

النصيحة الحادية عشرة: في ترسيخ الحقيقة في المركز:

1. عقيدة التناقض: وحدة الأضداد مستحيلة؛ لأن أياً من القوتين المتضادتين لا تستطيع القضاء على

نقيضتها.

2. ضياء الدين برني يناهز بصراع شامل ضد الهندوسية.

3. يعترف برني بأن الملوك المسلمين في الهند متسامحون: (أ) الهندوس مزدهرون. (ب) المهن الوضيعة

مسموح بها للمسلمين. (ج) يُسمح للفلاسفة بالتدريس.

4. يؤيد برني حظر تعليم الطبقات الدنيا، لأن التعليم سيجعلها فعالة وقادرة.

النصيحة الثانية عشر: بشأن إقامة العدل.

1. الشعور الفطري بالعدالة لدى الحاكم. 2. المساواة الخاصة والعامة.

النصيحة الثالثة عشر: شفقة الملك وعقوباته.

1. الحاجة للاعتدال والتمييز في المعاملة. 2. اعتراف الملك بالحقوق. 3. بعض مشاكل العقوبات.

النصيحة الرابعة عشر: في قوانين الدولة (الضوابط).

النصيحة الخامسة عشر: بشأن العزم العالي للملك.

النصيحة السادسة عشر: في المصائب والعلل التي تواجهها المملكة.

النصيحة السابعة عشر: في استحسان التخلي عن المعاملات الشديدة .

النصيحة الثامنة عشر: في الصفات المتناقضة للملك.

النصيحة التاسعة عشر: في الأصل النبيل لأنصار الملك.

النصيحة العشرون: في أنه لا ينبغي لأحد أن يتقدم على الملك.

النصيحة الحادية والعشرون: حول ذوو النسب الرفيع وذوو النسب الوضيع .

النصيحة الثانية والعشرون: في فوائد حماية الملك للعائلات العريقة.

النصيحة الثالثة والعشرون: في الرذائل التي لا تتوافق مع الملوكية .

النصيحة الرابعة والعشرون: أساس كل نصيحة: أن خلاص الملك يعتمد على الإيمان الذي يملأ قلبه .

ثم ختم برني كتابه بهذه الخاتمة :

طمعا في رحمة الله أختم هذا الكتاب الذي أسميته "فتاوى جهانداري" بكثير الدعاء؛ أبتهل إلى رب العوالم الثمانية عشر ألفاً!!! أن يمسك بيد عبده العاجز ويخرجني من دوامة ذنوبي، ويبلغني بواسع رحمته إلى شاطئ الخلاص، وأنه كما بلطفه السرمدي ملأ صدري المغموم بالتضرّع والتواضع والمسكنة، أن يجعل خاتمتي وخاتمة سائر المسلمين شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمد رسول الله (Mohammad Habib, Afsar Umar Salim Khan, 1961, P115)

بشرف شهادة التوحيد الخالص، أعترف بضعفي وانكساري وعجزتي، لكن بالرغم من افتقاري فهذه مناشدتي لسادة المعرفة والحكمة في الدين والدولة: قام من سبقني من أهل التصنيف بتجميع العديد من الرسائل حول علم الحكم ووصايا الدولة، متبعين ما استقرّ به العمل من أساليب المعرفة والبلاغة؛ فأظهروا بدائع ولطائف في التأليف وزينوا أعمالهم بالقصائد والاقتراسات في النثر والشعر، لكنهم خلطوا بين وصايا شؤون الحكم التي تعتمد على أقوال وأفعال الملوك والوزراء والحكّام والأمراء، مع غيرها من الوصايا، وسيعلم أهل الحكمة أنهم لن يجدوا بين الكتب المصنّفة كتابا مصنفاً بالترتيب والشكل والتنظيم الذي كُتِبَ على أساسه " فتاوى جهانداري"؛ لقد بحثت فيه من البداية إلى النهاية جميع وصايا الحكم وشؤون الدولة بالرجوع إلى الأصول وسوق الشواهد وضرب الأمثلة (Mohammad Habib, Afsar Umar Salim Khan, 1961, P115)لقد واجهتني صعوبات كثيرة في

تصنيف هذا الكتاب فكان مثلي مثل ما قال ذلك الشاعر خسرو :

كان عليّ تحويل جسدي وروحي إلى حبال قبل أن أتمكن من إحضار ماء الحياة.

جزاكم الله خيراً، إنّ الملوك والوزراء وأولي البصيرة والسياسة والمستشارون الأكفاء للدولة والمملكة - في هذا العهد والذين سيأتون من بعدهم إلى يوم الدين - لن يبخلوا باعترافهم وثنائهم علي عندما يشرفون كتاب "فتاوى جهانداري" بدراسته وفهم ما أوردته فيه بوضوح من خلال التلميحات المتعلقة بالمبادئ والشواهد والأمثلة، أناشد مثل المتسول جميع من يقرأ ما كتبت سواء خلال حياتي أو بعد مماتي أن يتكرم علي بالدعاء الصادق ليغفر الله ذنوبي أعينوني بالدعاء لتدركني رحمة الله العظيم، أنا العاجز الضعيف المذنب. ماذا أقول عن حالي أمام الناس؟ أنا مذنب أنا مذنب أنا مذنب، لا تسعني إلا مغفرة الله، وليس لي ملجأ من ذنوبي إلا في حجاب الله (Mohammad Habib, Afsar Umar Salim Khan, 1961, P116)

5. الخاتمة

هكذا عكس عمل ضياء الدين برني في "فتاوى جهانداري" التحوّلات السياسية والاجتماعية في شبه القارة الهندية من منظور فقهي سياسي إسلامي استثنائي. وعلى الرغم من حقيقة أن معظم كتب أدب نصائح الملوك توجّه غالبا إلى مسؤول معيّن؛ ملكا كان أو أميراً أو وزيراً ... إلخ، إلّا أن برني كتب فتاويه كإرشادات لعامة حكام المسلمين على لسان من يرى أنّه السلطان المثالي القدوة ألا وهو محمود الغزنوي.

في نهاية "فتاوى جهانداري" يزعم برني أنه أنجزها بعد عمل جاد وقراءة العديد من الأعمال السابقة حول نظام الحكم والإدارة. كما يدعي أن العلماء والمتقنين والوزراء والملوك والإداريين والمحاربين سيجدون عمله أكثر فائدة من بقية الأعمال. وهنا تبدو المقارنة بين أفكار برني ونظام الملك الطوسي (1017-1091) مناسبة؛ من الناحية النظرية هناك تشابه في أفكارهما لكنهما مختلفان تماماً في التفسير. أكد كلاهما على حسن الخلق للملك وإدارييه وقادته وقضاته، لكنهم يختلفون في التفاصيل. نهج برني أكثر توضيحاً وتفصيلاً. استشهد كلاهما بأمثلة من تاريخ الإسلام وبلاد فارس واليونان. على عكس برني استمد نظام الملك بعض الأمثلة من تاريخ الملوك الصينيين. ربما يرجع هذا الاختلاف إلى أن نظام الملك الطوسي كان الوزير الأول للسلطان ملك شاه الذي حكم تركستان من 1074 إلى 1092، لكن برني لم يمارس أي مسؤولية إدارية عندما كان الأول سياسياً عملياً، كان الأخير عالماً وسياسياً ومؤرخاً شارك أقرباؤه المقربون كثيراً في إدارة سلاطين دلهي، ومع ذلك كرس كلاهما نفسه لاقتراح طرق ووسائل أفضل لتحسين نظام حكومتيهما. (Riaz Ahmad, 2004, P70-71)

أكبر فرق بين برني ونظام الملك وكذلك الغزالي تمثل في الأرض التي عاشوا عليها والشعب الذي نشأوا فيه؛ عالج برني قضية إنشاء نظام فعال للحكومة الإسلامية في أرض هندوسية، في حين طرح الآخرون كيف يمكن تحسين نظام الحكم في أرض مسلمة. يكمن الاختلاف في طبيعة مجموعتي السكان المختلفتين دينياً؛ كانت آسيا

الوسطى منطقة ذات أغلبية مسلمة تحكم نفسها، بينما كانت الهند ذات أغلبية هندوسية تحكمها الأقلية المسلمة. وهكذا اختلفت طبيعة مشاكلهم السياسية عن بعضهم البعض..(Riaz Ahmad, 2004, P71-72)

من المهم تكثيف البحث فيما يتعلّق بالقيم السياسية الإسلامية في التراث الإسلامي، إذ أنّ البحث التاريخي في تلك القيم لا يزال ساحة بكر، خصوصاً والعالم الحديث كله يتحدث عن الحوكمة الفاعلة والحكم الراشد وقواعده وقد نُكِبت الحضارة الإسلامية سياسياً حين انحرفت عن القيم السياسية التي شيّدها النبي صل الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون، لصالح قيم سياسية بيزنطية ساسانية قوامها الأسر الحاكمة ومبدأ التوريث. ثم إنّ الذين كتبوا عن الفكر السياسي في الإسلام غاب عنهم الكثير من التراث الذي كُتِبَ حول ذلك الموضوع ومعظمه لا يزال مخطوطاً. بالنظر إلى دراسة جادّة قدّمها بعض الباحثين في التراث السياسي الإسلامي، فإنّه قد تمّ التوصل إلى 307 من المصادر التراثية مباشرة في علم السياسة - كما عرفه المسلمون - منها 105 كتاب مطبوع بنسبة 34.5% و127 كتاباً لا يزال مخطوطاً بنسبة 41.5% وذلك بعد حصر الباحث لـ 5% فقط من فهارس المخطوطات الموجودة في العالم والتي صنفت بجميع اللغات وقليل منها كتب بالعربية وهو الجزء الذي رجع إليه، وبلغه الإحصاء فإنّ جل من كتبوا حول التراث السياسي في الإسلام استخدموا مصادر محدودة للغاية؛ فعلى الرغم من أنّ أكثر من 80% ممن كتب في علم السياسة الإسلامي لم يرجع لأكثر من 10 مصادر!!! إلا أنهم يكرّرون المصادر نفسها (نصر محمد عارف، 1994، ص 59، 65).

6. قائمة المراجع

المؤلفات العربية

1. عبد الحكيم الرميلي، (2016)، تغير الفتوى في الفقه الإسلامي (سلسلة الرسائل والدراسات الجامعية) ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان .
2. عبد الرحمن بدوي، (1954)، الأصول اليونانية للنظريات السياسية في الإسلام، ج1، دار الكتب المصرية القاهرة.
3. عبد المنعم النمر، (1981)، تاريخ الإسلام في الهند، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت، لبنان .
4. محمد أحمد دمج، (1994)، مرايا الأمراء أو الحكمة السياسية والأخلاق التعاملية في الفكر الإسلامي الوسيط، ط1، مؤسستي بحسون ودار المنال، لبنان.
5. محمد عارف نصر، (1994)، في مصادر التراث السياسي الإسلامي، دراسة في إشكالية التعميم قبل الاستقراء والتأصيل، ط1، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية.

المؤلفات الإنجليزية

1. Aniruddha Ray, 2019, The Sultanate of Delhi (1206-1526): Polity, Economy, Society and Culture, 1 Edit, Routledge, London and New York.
2. Black Antony, 2011, The History of Islamic Political Thought – From the Prophet to the Present, Edinburgh University Press, Edinburgh.
3. Boroujerdi Mehrzad, 2013, Mirror for the Muslim Prince: Islam and the Theory of Statecraft (Modern Intellectual and Political History of the Middle East), 1 Edit, Syracuse University Press, USA.
4. Das Arbind, 1996, Arthashastra of Kautilya and Fatawa-i-Jahandari of Ziauddin Barani: An Analysis, Pratibha Prakashan, Delhi.
5. Gerhard Bowering, Et Al, (2013), The Princeton Encyclopedia of Islamic Political Thought, Princeton University Press and Princeton and Oxford, United Kingdom.
6. Jarava Lal Mehta, (1900), Advanced Study in the History of Medieval India, 1Edit, Sterling Publishers Pvt. Ltd, New Delhi.
7. Kautilya, 2009, Kautilya's Arthashastra, The Way of Financial Management and Economic Governance, 1Edt, JAICO Publishing House, Bombay, India.

8. Mohammad Habib and Afsar Umar Salim Khan: The Political Theory of the Delhi Sultanate (including a translation of Ziauddin Barani's Fatawa-I Jahandari), Kitab Mahal, Allahabad, India, 1961.
9. Muzaffar Alam, 2004, Languages of Political Islam in India 1200-1800, 1 Edit, Permanent Black, Ranikhet, India.
10. Peter Jackson, 1999, The Delhi Sultanate: A Political and Military History, Part of Cambridge Studies in Islamic Civilization, Cambridge University Press, United Kingdom.
11. Roy Himanshu and Muzaffar Alam, 2017, "Zia Barani: Good Sultan and Ideal Polity", in: Himanshu Roy and M.P. Singh (eds.): Indian Political Thought, Delhi.
12. Seyed Hossein Zarhani, (2017), " Fatawa-yi jahandari: Hybrid Political Theory in the Delhi Sultanate (Perso-Islamic and Endogenous Traditions of Statecraft in India)", The Arthashastra in a Transcultural Perspective Comparing Kauāilya with Sun-Zi, Nizam al-Mulk, Barani and Machiavelli, Edited by: Michael Liebig and Saurabh Mishra, 1Edit, Institute for Defence Studies and Analyses (IDSA), Pentagon Press, New Delhi.
13. V.P. Varma, 1986, Ancient and Medieval Indian Political Thought, Lakshmi Narain Agarwal Publishers, India.
14. Elliot, Henry Miers, Sir, and Dowson, John, 1871, The history of India: as told by its own historians. The Muhammadan period, Vol 3, Trubner and Co, 8 and 60, Paternoster Row, London.
15. Hardy Peter, 1978, "Unity and Variety in Indo-Islamic and Perso-Islamic Civilization; Some Ethical and Political Ideas of Diya al-Din Barani of Delhi, of al-Ghazali and Nasir al-Din Tusi Compared", Iran: Journal of the British Institute of Persian Studies, Vol16, United Kingdom.
16. Irfan Habib, 1999, "Ziyā Baranī's Vision of the State", The Medieval History Journal 2/ no. 1.
17. Khan Iqtidar Alam, 1986, "Medieval Indian Notions of Secular Statecraft in Retrospect", Social Scientist 14, no. 1, New Delhi.
18. Muzaffar Alam, 2002, "Shari'a and Governance in the Indo-Islamic Context", in David Gilmartin and Bruce B. Lawrence, eds, Beyond Turk and Hindu: Rethinking Religious Identities in Islamicate South Asia, India Research Press, New Delhi.

19. Riaz Ahmad, 2004, Political Philosophy of Zia-ud-Din Barani, Pakistan Journal of History & Culture, Vol 25/1, National Institute of Historical and Cultural Research, Pakistan.
20. Saheb Alem Al-Adhami Al-Nadwi, 2018, The Role of Scholars and Historians in Transmitting Sassanid Political Theories to India in the Age of the Delhi Sultanate, "Fatwas of Jahandari" as a Model, Journal of Islamic Ethics, Vol 2, Research Center of Islamic Legislation and Ethics, Faculty of Islamic Studies, Hamad Bin Khalifa University, Qatar.
21. Sarkar, N, 2006, "The Voice of Mahmud – The Hero in Ziya Barani's Fatawa-I Jahandari", The Medieval History Journal 9/ no.2.
22. Sarkar, N, 2011, "An Urban Imaginary, ca. 1350 The Capital City in Ziya Barani's Fatawa-I Jahandari". Indian Economic & Social History Review, 48/ no.3.
23. Syros, V, 2012, "Indian Emergencies – Barani's Fatawa-I Jahandari, the Diseases of the Body Politic, and Machiavelli's accidenti", Philosophy East and West, 62/ no.4.
24. The Editors of Encyclopaedia Britannica: "Ziya 'al-Din Barani", Encyclopaedia Britannica, <https://www.britannica.com/biography/Ziya-al-Din-Barani>